نازك الملائكة من أشواق القلب إلى تجليات الروح وديوان «يغير ألوانه البحر»

منذ أواخر الأربعينيات وصوت نازك الملائكة الشعرى يشع بعبير الرومانسية الجديدة التى تميل إلى التمرد على الشكل الحتمى للقصيدة التقليدية، ولكنها تكبح جماحها لتظل حركة التجديد متواصلة فى أساسها الإيقاعى مع سياق الشعر العربى عبر تاريخه الطويل ولهذا نرى التوازى فى إبداع الشاعرة العراقية نازك الملائكة بين الجانب الخلاق فى ميدان الشعر والجانب المعتدل فى ميدان التنظير النقدى للشعر الحديث. وسوف ننحى من البداية جانبا الدور الريادى للشاعرة والذى تطاحن حوله النقاد والدارسون وبعضهم يرى أن قصيدتها «الكوليرا» ١٩٤٧م كانت فاتحة عصر الشعر الحديث وبعضهم يضع لواء الريادة فى يد السياب من أجل قصيدته.. «هل كان حبا» ١٩٤٧م وآخرون يعودون بالتجربة كلها إلى محاولات آخرين مثل باكثير وفريد أبو حديد ولويس عوض وغيرهم. ولكن هذه قضايا خلافية لا تؤثر كثيرا فى ميدان رصد الظواهر الأدبية وحركات التجديد المعاصرة.. وتبقى أمامنا التجربة الإبداعية والنقدية للشاعرة العراقية نازك الملائكة متمثلة فى دواوينها الشعرية «عاشقة الليل» ١٩٤٧م و«شظايا ورماد» ١٩٤٩م «قرارة الموجة» ١٩٥٧م و«شجرة القمر» ١٩٦٥م و«مأساة الحياة وأغنية الإنسان» ١٩٦٨م و«يغير ألوانه البحر» ١٩٧٧م – ودراساتها: قضايا الشعر المعاصر ١٩٦٢م – شعر على محمود طه ١٩٦٥م – التجزيئية فى المجتمع العربى ١٩٧٢م –، وقد ظلت الشاعرة

تراوح منذ تجربتها الشعرية الأولى بين ألوان من الرومانسية ونزوع إلى الرمزية مع تراسل واضح فى عمق الحركة الشعرية مع التيار الكلاسيكى المتأثر بظلال أبوللو والشعر الرومانتيكى الإنجليزى وتتضح هذه الرؤية على وجه التحديد فى دواوينها الثلاثة الأولى (عاشقة الليل – شظايا ورماد – قرارة الموجة) غير أن الشاعرة – التى تنهل من ثقافة أجنبية لا تتاح إلا للصفوة من الكتاب وثقافة أدبية عربية لا تتاح إلا لعتاة التراثيين – قد حاولت أن تجعل التوازن الفنى رائدها تجاه شعر يعتبر فى مجمله برهانا أكيدا على مشروعية التجديد لانبثاقه من تراثه ولأصالة المجددين وإخلاصهم لأدبهم وانتمائهم الصادق لتراثهم الشعرى وهى مرحلة كانت ضرورية إبان المراحل الأولى للشعر الحديث الذى اكتسح المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية. ويأتى ديوانها «يغير ألوانه البحر» ليمثل نقلة واسعة من حيث الرؤية الداخلية للعالم والبنية الفنية على السواء. فقد أصبحت رؤية الشاعرة للعالم نابضة بالصفاء معتمدة على بلاغة الصورة الفنية التى ترتوى من تفاعلات الطبيعة وظواهرها. صور توحى لك بتوالد النبات وحركته المعقدة البسيطة فى الوقت نفسه. لقد انتقلت الشاعرة بتجربتها من أشواق القلب إلى تجليات الروح حيث يفتقر الحب الإنسانى إلى النضرة الأولى وتتراجع نار الشهوات ليصبح الضوء نابعا من الذات الإلهية وحدها قصيدة «سنابل النار» حيث تصور النار كمرادف للحب:

ومثل الحب. هذى النار ألسنة مراوغة فلا تلمس
غمائم من لهيب سائل. زورق شوق أصفر الصارى
ونهر ثائر الأمواج مجنون فلا يحبس

وزوبعة تضج وحز منشار
فيا نارى أياناري.
غرامى الجامح الأرضى يشبه وجهك الأصفر.

وفى هذه القصيدة تصور الحب المراهق بالحب الترابى ولكنها تنتقل من مرحلة الحب المراهق إلى حب الوطن إلى حب الله تقول الشاعرة: «ذات شـتاء أثمرت النار فاشتعل الحب ثلاث دوائر واصفرت معه النار ثـم احمرت ثم صارت بيضـاء تحرق عينى من يحـدق فيها»، وتقودنا هذه النار إلى الملمح الرمزى الذى يغلف الديوان كله ويسرى فى عروق سـطوره ينبض فى صوره ويشـمل بنـاء كل قصيدة فيـه. لقد تحررت الشاعرة من رتابة وتكرار اللحظة العاطفية الغنائية التى سادت دواوينها السـابقة لتدخـل مرحلة جديدة تتمثل فى هذا البنـاء المتعدد الطبقات والـذى يوحى فى كل طبقة ببعد إنسـانى وتاريخـى وميتافيزيقى كما حدث فى قصيدتها «يغير ألوانه البحر». وفى هذه القصائد تلح الشاعرة على جعل البحر مرتكزا لتجربتها الشعرية ولكننا ونحن نسبح فى غفلة التوهم بأن هذا البحر مجرد كائن باهر يتوسط الأرض ويتخللها نكتشف أن الشـاعرة تراوغنا فتجعل من هذا البحر سـرا ذائعـا له ملامح بحار كثيرة، فهذا البحر يشى بالحب المحتدم بين قلبين منفعلين.

سألت عـن البحر هل تتغير ألوانه؟
وهل تتلون أمواجه؟ هل ترى تتبدل شطآنه؟
نعم يا حبيبى
وبحر يلاطم وديان نفسى

ويرحل عبر موانئ لون وشمس
وعبر حقول مغيب
ويغتسل الغسق القمرى بأمواجه ويبلل شعره
ويلقى إليه سماء وفكره
نعم يا حبيبى نعم يلون خلجانه
نعم ويغير ألوانه
فيشرب صفرة شكى وظنى
ويصبح أزرق فى لون لحنى
وتبحر فى شذر أمواجه أغنياتى وسفنى
ويصبح أبيض تصبح لجته ياسمينة
ويصبح أخضر مثل اخضرار العيون الحزينة
ومثل زبرجد نهر النهاوند فى قعر حزنى

نحن أمام هذه الصورة المتدفقة تتدافع فى حنان وشـوق نلمس وجه الحب الإنسـانى فى ظواهره وملامحه وانفعالاته الجامحة الرائعة وفى أنغامه العميقة التى تولد النشـوة ولكن الشـاعرة لا تلبث أن تنقلنا إلى بحر آخر له مذاق التاريخ أو صورة الزمن حين تقول:

حبيبى لقد كان لى فى الطفولة جد
طويل كمثل جدائل شعر ربيع وريف
وكان لجدى عمق وظل وبعد
له عنف عاصفة فى خريف
وكان مدى فى بحار مطلسمة لا تحد
وجدى كان قويا كموجة بحر مخيف

وترشـــح البراهين الفنية الواردة فى تضاعيف صور القصيدة بأننا أمام بحـــر آخر له ملامح مجـــردة يصل بنا إلى آفاق ميتافيزيقية حين تدخل متاهة ألغازها الشعرية فيختلط الواقع المادى بالأحلام الرمزية بأشواقها الصوفية حين تقول:

عن اللون والبحر تسألنى يا حبيبـــى
وأنت بحارى
ومرجانتى ومحارى
ووجهك دارى
فخذ زورقى فوق موجة شوق مغلقة خافية
إلى شاطئ مبهم مستحيل
فلا فيه سهل ولا رابية
إلى غسق قمرى المدار

ويتضح البعد الصوفى للقصيدة حين تقول:

هنالك لا طول للظل فى حلمنا لا قصر
ولا دفتر للقدر
ولا شىء يمكن أن يرتقيه النظر
سوى موج أغنية تتحرر عبر جبال القمر

هـــذه هى الأبعاد الرمزية الثلاثة التى تتراوح بينها تجربة الشـــاعرة نـــازك الملائكة فـــى ديوانها «يغيـــر ألوانه البحر» البعد الإنســـانى فى ملامحه الواقعية والرومانسية والبعد القومى والتاريخى ثم البعد الصوفى. وإذا كانت قصيدة «ســـنابل النار» تصح دليـــلا للديوان من حيث الرؤية

الداخلية للعالم التى تجسدها معظم القصائد فإن التطبيق الفنى يلوح فى قصيـــدة «زنابق صوفية للرســـول» حيث يعود البحـــر للظهور مرة أخرى متخـــذا مظهرا يتجاوز الدلالات المادية ويحلق بنا فى آفاق صافية لروح هائمة بحب الرسول الكريم.

وجه حبيبى أكبر من لا نهاية البحر، من مداهُ
يسد أقطاره الزرق،
يطوى طيوره، موجه، رؤاهُ

ثم لا تلبث الشـــاعرة أن تجرد عاطفتها وأشواقها الروحية لتصنع لنا طائرا رمزيا يحمل كل الدلالات الصوفية.

وجاءنى طائر جميل وحط قربى
وامتص قلبى
صب على لهفتى السكينة
ورش هدبى
براءة، رقة، ليونة
وقلت يا طائرى، يا زبرجد
من أين أقبلت، أى نجم أعطاك لينه؟
يا نكهة البرتقال يا عطر ياسمينة
وما اسمك الحلو: قال أحمد

وإذا كان الرمز يتخلل ثنايا القصائد ويتجول بين صور الكائنات مثل البحر والطير والنار فإن الشاعرة تستلهم التراث الدينى فى قصيدة «الماء والبارود»، حيث كتبت تقول:

من ذكريات حرب رمضان و«أكتوبر» سمعت الشاعرة أن فرقة من الجيش المصرى فى سيناء كان أفرادها صائمين وحان موعد الإفطار وقد نفد الماء عندهم فراحوا يتضرعون إلى الله فجاءت طائرات إسرائيلية وقصفت المعسكر فتفجر الماء من الأرض حيث كانت مواسير المياه التى أقامها اليهود مدفونة، وفى هذه القصيدة تستوحى الشاعرة قصة إسماعيل عليه السلام ولهفة أمه هاجر حتى تدفق الماء تحت قدميه. والشاعرة تقيم نوعا من التوازى بين الواقع والتراث الدينى والتاريخى فى قصيدة «الماء والبارود» فتتخذ القصيدة نفسا ملحميا جديدا على منهج الشاعرة الفنى. وتتجلى القدرة الشعرية الأساسية فى هذا الديوان – إلى جانب الرموز الدالة على ألوان الطيف الكثيرة – من المعانى والتجارب والمشاعر وتتجلى قدرة الشاعرة نازك الملائكة فى صياغة الصورة الشعرية النابضة بالحيوية والحياة وهى تصف ميلاد قصيدتها فتقول:

وتولد عندى القصيدة
كمولد فينوس من زبد البحر طافية مثل وردة
جدائلها أشطر عائمات
وأهدابها من حروف ومن كلمات
يوسدها الليل أهدابه، وهواه، وسهده
ويمنحها زبد البحر خده

إن الثراء الفنى المتنوع فى ديوان «يغير ألوانه البحر» للشاعرة العراقية نازك الملائكة يمثل هذا التطور الأصيل الذى يتلألأ بالجمال والجلال معا فى دراية واعية بصناعة الشعر وتحولات الروح بالواقع

بأبعــاده التاريخية والحلم بأبعــاده الميتافيزيقية والصوفية. والديوان – يعد – إضافة لتراث الشــاعرة المبدعة وتراث حركة الشعر الحديث كله وبرهان فنى ناصع على مشروعية التجديد وضرورته.

❑❑❑